فقه التغيير السياسى في الإسلام

مجدى أحمد حسين

رقـــم الإيـــداع :
٢٨٢٦ / ٢٠٠٢

التـــــوزيع
٣٣٧٥٤٠٤ / ٠١٢

عنوان المؤلف : ٣٦ شارع الروضة . المنيل . القاهرة

تليفون و فاكس : ٣٦٤٤٠٥٥

بريد الكترونى : magdyhussien@hotmail.com

موقع جريدة (الشعب) على الانترنت
alshaab-eg.com

موقع حزب (العمل) على الانترنت
el3amal.net

الطبعة الرابعة ٢٠٠٤
الإشـــراف الفنى
طـارق الكركيت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

منذ صدور الطبعة الأولى.. أى منذ سبع سنوات تقريبا.. جرت أحداث ومياه كثيرة.. وسيلاحظ قارىء هذه الطبعة الإشارة إلى أحداث.. ربما تجاوزها الزمن الآن.. ولكن هذه الدراسة لم تستهدف التأريخ لمرحلة معينة.. أو تقييم الظروف السياسية للحركة الإسلامية فى لحظة خاصة.. بقدر ما استهدفت وضع أسس نظرية لفقه التغيير السياسى فى الإسلام.. مع الاهتمام بشكل خاص بالظروف المصرية.. وأحسب أن مرور الزمن لم يغير المفهوم الأساسى لهذه الدراسة، وربما جاءت الأحداث لتؤكد بعض ما جاء فيها.

وقد جاءت الدراسة مركزة ومكثفة لأنها وضعت بالأساس كوثيقة للتثقيف الحزبى وإلا فإن الموضوع يحتاج لمزيد من الاسهاب والشرح والمزيد من حشد الأدلة الشرعية.. وقد كان بإمكانى الآن أن أقوم بذلك بمناسبة هذه الطبعة الجديدة.. إلا أن دراستى الجديدة قد قامت بجزء كبير من هذه المهمة.. أعنى دراسة

«الجهاد صناعة الأمة ـ بحث فى فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر».. والتى صدر منها ٣ أجزاء حتى الآن.. وبهذا المعنى فإنى اعتبر أن الدراستين متكاملتان وفى نفس الموضوع.. وهو مفهوم العمل السياسى فى الإسلام.. وهو المجال الذى مايزال يحتاج لمزيد من قدح ذهن المفكرين والعلماء الإسلاميين.. من أجل إعادة الاعتبار إلى المفاهيم السياسية الأساسية التى تم إهدارها طوال القرن الميلادى المنصرم.. خاصة بعد سقوط الخلافة الإسلامية.

ورغم الصحوة الإسلامية المباركة منذ قرابة العقدين من الزمان.. إلا أن الجانب السياسى فى الإسلام بمعنى الإصلاح السياسى وتنظيم المجتمع من منظور إسلامى.. وبمعنى الإصلاح الجماعى فى الإسلام الذى يتوازى وينبنى على الإصلاح الفردى.. هذا الجانب يحتاج إلى المزيد من الجهود الفقهية لإعادة التوازن إلى الرؤية الإسلامية.. أو بالأحرى العقيدة الإسلامية كما أنزلها الله فى القرآن الكريم.. وكما شرحتها وفسرتها السنة النبوية المشرفة.

المؤلف

منذ إعلان حزب العمل عن توجهه الإسلامى.. وهناك كثير من التساؤلات تدور حول كنه هذا التوجه.. هل هو جديد كل الجدة؟ أم بلورة وتعميق لاتجاه أصيل؟ أم هو مجرد رجع الصدى للتحالف مع الإخوان المسلمين فى انتخابات مجلس الشعب؟

كثير من التساؤلات يدور معظمها حول هذه المعانى.. وهذه الكلمات محاولة للاجابة على هذه التساؤلات من أجل شرح وتوضيح النهج الإسلامى الذى يمثله حزب العمل فى ساحة العمل الإسلامى والسياسى فى مصر..

الجذور

نشأت حركة مصر الفتاة (الجذور التاريخية لحزب العمل) عام ١٩٣٣ كحركة إسلامية أصيلة.. بقيادة أحمد حسين الذى قد نشأ نشأة دينية على مستوى الأسرة وعلى مستوى التعليم (مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية). ولقد اعتبرت حركة مصر الفتاة تقليديا باعتبارها من مدرسة الوطنية أو القومية المتطرفة، وعندما يؤرخ المؤرخون للحركة الإسلامية لا يضعون حركة مصر الفتاة ـ

ثم الحزب الاشتراكى من بينها ـ من زاوية الاسم الذى اتخذته (فهى لم تغير اسمها إلى الحزب الوطنى الإسلامى إلا لفترة يسيرة فى بداية الاربعينيات) ومن زاوية القضايا التى ركزت عليها.. وهذا ما يضعنا فى البداية أمام النظرة الضيقة لمفهوم العمل الإسلامى والدعوة الإسلامية، والتى تخرج من اعتبارها الأحزاب والحركات الوطنية والقومية التى عملت من أجل الاستقلال عن الاستعمار حتى تلك الحركات التى ربطت بشكل وثيق بين كفاحها من أجل التحرر الوطنى والهوية الإسلامية للوطن.. ومن أبرز هذه الحركات فى مصر الحزب الوطنى الأول (فى عهد الثورة العرابية) والحزب الوطنى الثانى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد.. وحركة مصر الفتاة والحزب الاشتراكى. لو أخذنا فى الاعتبار النموذج المصرى. وليس من قبيل المصادفة أن أحمد حسين تأثر فى صباه وشبابه بأفكار وسياسة مصطفى كامل وكان يدرس كل أعداد مجلة اللواء مع توأمه فتحى رضوان، وهما فى مقتبل حياتهما الفكرية والسياسية.

وقد كانت سياسة الحزب الوطنى التى اختطها مصطفى كامل.. تربط بين النضال الوطنى من أجل الاستقلال عن الاستعمار البريطانى، والحفاظ على الرابطة الإسلامية فى ظل الدولة

العثمانية، التى مثلت آخر مرحلة من مراحل الخلافة الإسلامية.. وتمازجت لديه الأبعاد الوطنية والدينية بلا أى معضلات أو حساسيات.. باعتبارها دوائر متكاملة.. غير متعارضة.

إن اهتمام حركة مصر الفتاة بتحرير مصر ـ كما يتضح من اسمها ـ هو اهتمام بتحريرها من الاستعمار البريطانى الذى قضى على هويتها الإسلامية.. وفرض عليها القوانين الغربية، ونظم التعليم ونظم الحكم الدستورية الغربية، ومن الطبيعى أن يكون إعلاء شأن الوطنية والقومية فى مواجهة الاستعمار هو الرد على الانسحاق أمام الأجنبى.. إن ارتفاع نبرة الوطنية (المصرية) والقومية (العربية) فى مواقف مصر الفتاة لا يبعدها عن الموقف الإسلامى الأصيل، بل إن هذا هو واجب كل مسلم غيور على دينه، وبالتالى لابد أن يكون غيورا على وطنه المستباح بجنود الاحتلال وبتعليمات المندوب السامى البريطانى.

كما أن نزول «مصر الفتاة» إلى معترك الحياة السياسية ببرامج محددة وبمعارك متواصلة ضد الحكومات المتعاقبة، وضد الأحزاب السياسية التى ألفت لعبة كراسى الحكم، لهو من صميم العمل الإسلامى الذى يجب ألا يقتصر على النواحى التربوية الفردية.

الله أكبر.. كان الشعار الأول لحركة مصر الفتاة (الله: يجب أن

نعبد الله وأن نعلى كلمته) وبرنامجها تتصدره الغاية (إقامة امبراطورية تتألف من مصر والسودان وتحالف الدول العربية وتتزعم الإسلام).

الجهود التربوية

أدركت حركة مصر الفتاة من البداية ـ وعلى خلاف الأحزاب السياسية التقليدية ـ العلاقة الوثيقة بين الإيمان بالله والعمل العام الصالح (العمل السياسى الشريف) ، وأنكر مصطفى النحاس ـ زعيم حزب الوفد ـ على مصر الفتاة أن تضع لفظ الجلالة فى صدر برنامج سياسى باعتباره «شعوذة».

كما أدركت مصر الفتاة العلاقة الوثيقة بين السياسة والاخلاق.. فدعت إلى إعادة كامل الاحترام والقداسة للدين وإلى الارتقاء بالأخلاق، وإلى محاربة الدعارة والخمور والتخنث.

* يجب أن نلتزم الصدق وأن نخلص فى العمل ونستمسك بالتعاون ، وأن يحب بعضنا بعضا.

* يجب أن نقدس الشرف والواجب وأن نقلل من اللهو والمزاح.

* يجب أن يصبح التجنيد اجباريا للجيش، وأن تنقص مدة الخدمة وأن يمتلىء الشباب بالروح العسكرى.

* يجب أن تكون الفنون فى خدمة البعث والإحياء لا أن تكون وسيلة للهو والفجور.

* يجب أن تنظم الأسرة على قواعد قوية من الحب والاحترام المتبادل بين الأبناء والآباء والجهاد المشترك والوفاء.

* يجب أن نرقى المرأة ونعلمها العلم الكامل لكى تكون زوجة صالحة، ولتكون أما تخلق الأبطال وليكون بيتها يضم الحياة.

* يجب أن نقضى على الأنظمة البالية التى تعرقل حركة الزواج، فتلغى المهور الباهظة والحفلات الهوجاء.

وقد دعت المبادىء العشرة الأساسية للحركة التى تلخص برنامج وتوجه الحركة إلى التمسك بأهداب الدين والخلق الحميد كشروط للانضمام إلى العضوية فكان من بينها:

* لا تتكلم إلا بالعربية ولا ترد على من لا يخاطبك بها، ولا تدخل محلا لا يكتب اسمه بالعربية.

* لا تشتر إلا من مصرى ولا تلبس إلا ما صنع فى مصر ولا تأكل إلا طعاما مصريا فإن لم تجد فعربيا.

* تطهر.. فقاطع الخمور ودور اللهو الحرام والسينمات الأجنبية.

* تطهر.. فصل لربك.

* حاسب نفسك كل ليلة ماذا قدمت فى يومك من أجل بلادك.

* احتقر كل ما هو أجنبى بكل نفسك.

وكان البعد التربوى مهما فى حركة مصر الفتاة.. بدءا من الحرص على أداء الشعائر الدينية، وإقامة صلاة العيد فى الخلاء، وتوعية الشباب على حياة التقشف والرجولة والخشونة بمعسكرات الجوالة.. ونشر الدعوة من خلال السير على الأقدام بين القرى والمحافظات، والتدريب العسكرى (نظام القمصان الخضر).. والاهتمام الشديد بالألعاب الرياضية.. وتنظيم المسابقات والدورات الرياضية فى مختلف الألعاب.. إلخ.

ثم تحول النشاط التربوى إلى الميدان العملى حيث خاضت الحركة معارك متوالية ضد الخمارات وبيوت الدعارة المرخصة، وهى المعارك التى سقط فيها الشهداء والجرحى بالإضافة لاعتقال العشرات.. والقضايا التى ظلت تلاحق مؤسس الحركة (أحمد حسين) حتى عام ١٩٥٦!!

الوحدة الإسلامية

كان من المحاور الأساسية للحركة ربط مصر بأمتها العربية والإسلامية.. والدعوة للوحدة العربية كنواة لشكل من أشكال

الاتحاد الإسلامى. وهو الأمر الذى يوضح أن شعارات مصر الفتاة ـ التى تدعو للاعتزاز بالمصرية ـ كانت موجهة للأجانب والانجليز (كأعداء محتلين) وليس للأخوة العربية والإسلامية، وكان التركيز دائما على أن الإسلام هو الرابط الأساسى للأمة العربية.

ولم يكن موقف مصر الفتاة مجرد أقوال فى الصحف، بل لقد دفعت ضريبة الجهاد فى العديد من المعارك من أجل السودان وفلسطين والعراق وغيرها.

ولم تر الحركة أى إمكانية لنهضة مصر بمعزل عن أمتها العربية الإسلامية.

حرب ضد الانجليز

ومعارك مصر الفتاة ضد الاحتلال البريطانى كانت جهادا إسلاميا.. بدأ بحملات مكثفة لمقاطعة البضائع البريطانية الأجنبية ومحاربة انتشار اللغات الأجنبية على حساب العربية، والتبعية الاقتصادية للغرب، وامتيازات الاستثمار الأجنبى على حساب الوطنى، ودعت إلى وضع الحماية الجمركية لحماية وتشجيع الصناعة الوطنية، ومحاربة الامتيازات الأجنبية التى جعلت للأجانب حصانة أمام القضاء المصرى ومعاهدة ١٩٣٦.. مما لا يتسع المجال لحصره.. وهو الأمر الذى تصاعد حتى أخذ شكل

الكفاح المسلح ضد الصهيونية فى فلسطين، وضد الانجليز فى منطقة قناة السويس.

حرب ضد الفساد

خاضت مصر الفتاة حربا شعواء ضد شتى مظاهر الفساد والانحلال الخلقي وبالذات فى صفوف الطبقة الحاكمة حتى وصلت فى حملتها إلى الذروة.. إلى شخص الملك فاروق نفسه والبطانة المحيطة به.. الأمر الذى دفع الملك لتلفيق تهمة التحريض على حرق القاهرة لإعدام أحمد حسين لولا أن قامت ثورة يوليو وأنقذت حياته.

وهكذا يمكن أن نلخص موقف مصر الفتاة الإسلامى فى المحاور التالية:

١ ـ الاهتمام بالنواحى التربوية الاخلاقية فى صفوف الأعضاء وعلى مستوى المجتمع.

٢ ـ الكفاح من أجل الاستقلال والتحرر الكامل من السيطرة الاستعمارية بكل أشكالها.

٣ ـ الإيمان بإمكانية نهضة مصر وقيادتها للعالم العربى والإسلامى وبناء قوة عظمى ـ على قاعدة الوحدة العربية الإسلامية ـ ضد قوة الغرب الاستعمارية.

٤ ـ محاربة الفساد بكل صوره وأشكاله والعمل من أجل إقامة مجتمع التكافل والعدل الاجتماعى.

٥ ـ التمسك بأصول الدين من العبادات والمعاملات والشرائع (يمكن مراجعة كتب الحركة المثلة فى: الحرب ـ الإيمان والإسلام ـ الإسلام والمرأة ـ العلم والمال فى الإسلام) كما تضمن البرنامج مراجعة كافة القوانين بما يتناسب مع الشريعة الإسلامية.

ومما يؤسف له أن بعض العاملين فى الحقل الإسلامى لا يحسب على النشاط الإسلامى كثيرا من هذه الكفاحات.. ضد البضائع الأجنبية واللغات الأجنبية والدعوة إلى التمسك باللغة العربية.. وكافة مقومات الاستقلال المادية والروحية.

فهذا النوع من الأنشطة السياسية والاجتماعية مكمل، بل هو جزء لا يتجزأ من الدعوة الإسلامية بمعناها الأرحب والأوسع.. وبالمفهوم الشامل حقيقة للدين الإسلامى.

حزب العمل

عندما عادت الحياة السياسية إلى التعددية.. دعا إبراهيم شكرى نائب رئيس حركة مصر الفتاة (سابقا) إلى تأسيس حزب العمل عام ١٩٧٨، وكان يواجه مهمة بالغة الصعوبة.. فحركة

مصر الفتاة لـم تواصل عملها بصورة سرية فى عـهد ثورة يوليو.. حيث اعتبر أحمـد حسين وقيادة الحـزب الاشتراكى (وهو الاسم الذى اتخذته مصر الفتاة فى أواخر ١٩٤٩ لـلتأكيد على اهتمامها بقـضية العـدل الاجتماعـى، وحيث بلـغت المظالـم الاجتماعـية ذروتها) اعتبروا أن مهمتهم قد انتهت بتسلم قيادة الضباط الأحرار للزمام فـى البلاد. فبعد خلافـات مع قيادة الثورة، وبعـد معارضة سياسـية فى الخارج قادها أحـمد حسين حتـى عام ١٩٥٦، بدا أن الأمر قد استقر للقيادة الجديدة، وأنها لا تريد لأحد أن يشاركها فى صناعة الـقرار ولا فى معارك الاستـقلال والبناء الاقتـصادى، مع تبنى ثورة يوليـو لكثير من الشعارات السياسية لحـركة مصر الفتاة والحزب الاشتـراكى فى مجالات عدة تمـس الاستقلال السـياسى والاقتصادى والوحدة العربية والعدل الاجتماعى.

واتجه أحمد حـسين إلى العمـل الفكرى الخالص.. خـاصة فى مجال البـحوث الإسلامية، حيث قـدم العديد من الكتـابات التى أثرت الفكر الإسلامى.

إعادة تنظيم مصر الفتاة باسم حزب العمل بدت وكأنها تأسيس لتنـظيم جديد من نـقطة الصفر.. وكـان اعتزال معظم مـجاهدى مصر الفتاة لـلحياة العامة لقرابة ربع قرن أثـره على قرار العودة..

كان طريقا شاقا لإعادة بناء وتنظيم صفوف الحركة، مع اعتماد متزايد على عناصر سياسية جديدة من جذور ومشارب مختلفة. ومرت مسيرة حزب العمل بمنعرجات شتى إلى أن تم بلورة الاتجاه الإسلامى للحزب وبالأخص بعد التحاق المفكر الإسلامى عادل حسين بمسيرة الحزب وتوليه الإشراف على تحرير صحيفة الحزب فى منتصف الثمانينيات.

ولكن يبقى أن المؤتمر العام الخامس للحزب (والذى عقد فى ١٩٨٩) كان العلامة الفارقة فى بلورة هوية الحزب الإسلامية.

ماذا يمثل حزب العمل فى الساحة السياسية؟

يدرك حزب العمل ضرورة ممارسة الحركة الإسلامية للعمل السياسى المباشر.. باعتبار أن التمكين لدين الله يتلازم مع إقامة النظام الإسلامى.. وهو الرسالة الحقيقية للعمل السياسى.. فالعمل الإسلامى يجب ألا يقتصر على الأنشطة التربوية والاجتماعية، بل يجب على قاعدة العمل التربوى العقائدى أن يخوض الحزب غمار المعارك السياسية مع أعداء التوجه الإسلامى وأنصار التبعية للغرب. ويجب أن يبلور رؤية إسلامية بديلة لتنظيم المجتمع فى مواجهة برنامج وممارسات السلطة الحاكمة ومختلف الفرق والأحزاب العلمانية. ويجب أن تكون للحركة

الإسلامية وجهة نظر محددة ازاء قضايا تنظيم المجتمع بمشكلاتها المعاصرة التى لا يمكن استخراجها بصورة مبسطة من التراث الفقهى الإسلامى العريض، والذى انكب على معالجات تخص مشكلات الماضى. والعمل السياسى يعنى معارضة سياسات الحكومة المتوالية وتتبع مساراتها المنحرفة عن جادة الصواب، وتأييد كل ما يتوافق مع الأسس الشرعية، وليس هذا من قبيل الانشغال بدور (رد الفعل) ولكنه ضرورى من زاوية أن أى قرار حكومى أو تشريع سلطوى.. ينعكس فورا على حياة الناس، ويحدد مراكزهم، بل ومركز بلادنا من العالم الخارجى (عربى إسلامى) أو (القوى الغربية المسيطرة)، وبالتالى فإن مقاومة السياسات والقرارات السياسية المنحرفة للحكومة واجب شرعى ويجب عدم الاكتفاء بمجرد الانتظار للحظة إقامة النظام الإسلامى، بل إن الوصول إلى هذه اللحظة يستتبع عشرات ومئات من المعارك الصغرى والمتوسطة التى يكتشف الجمهور من خلالها ضرورة تولى الإسلاميين لمقاليد الحكم.. باعتبارهم يطرحون الحلول الصحيحة لأزمات ومشكلات المجتمع. فالقضية المطروحة ليست فقط العودة إلى الإسلام، فلسنا فى حالة مبسطة تظهر فيها الدعوة الإسلامية فى مجتمع جاهلى.. بقدر ما نحن فى حالة عامة من التجهيل برسالة الإسلام وعلاقته بتنظيم المجتمع،

وإن سحق تخرصات المرجفين لن تكون ناجزة ونها ئية، إلا بقدر ما تنجح الحركة الإسلامية فى تقديم برنامجها الإصلاحى.. وإقناع الجماهير به.. خاصة وأن نزعة التدين والعودة إلى روح الدين ظاهرة واضحة فى المجتمع.. ويبقى أمام الشعب أن ينحاز بصورة نشيطة للحركة الإسلامية.. كبديل سياسى موثوق فى قدرته على حل مشكلات البلاد وإدارة دفة أمورها، وكممثل أمين للدين الإسلامى ورسالته.

إن مفهوم العمل السياسى فى الإسلام - كما نراه - يتطابق مع الدعوة القرآنية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

ولتكن منكم أمة.. أى جماعة أو فرقة.. وهذا المعنى يتكرر بصورة متعددة فى القرآن الكريم إشارة إلى أهميته، رغم أن نص القرآن على شىء ولو لمرة واحدة يكفى لإلزامه.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران: ١١٠].

﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[التوبة: ١٢٢].

ما العمل السياسى الإسلامى إذن إلا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.. وفى ظروفنا الحالية يتطور الأمر إلى قضية السلطة، أى العمل السياسى لتغيير الحكومة التى لا تلتزم بشريعة الله.. ووقعت فى براثن التبعية لقوى الغرب المعادية للإسلام وما تمليه هذه التبعية من سياسات متغربة علمانية فى شتى مجالات تنظيم المجتمع.

لقد أصبحت «السياسة» كلمة منكرة فى صفوف التيارات الإسلامية نتيجة ارتباطها بكثير من مظاهر الفساد والارتزاق وتقلب العاملين فى السياسة كالحرباء وانتهاجهم لشعار «الغاية تبرر الوسيلة » ، وإن كان هذا صحيحا فقد يدفعنا هذا للتبرم من كل المجالات «وليس السياسة فحسب» التى ضرب فيها الفساد أطنابه. السياسة بالمفهوم المكيافيلى «الغاية تبرر الوسيلة» مفهوم غربى للسياسة، ولكن هل يعنى هذا أن يقلع الإسلاميون عن العمل السياسى؟!أم يطرحوا مفهومهم للعمل السياسى؟ فالسياسة لا يمكن الانسلاخ منها. إنها تعنى ببساطة كل الأمور التى تمس التنظيم الكلى للمجتمع.. فكيف لا يعنى الإسلامى بالسياسة، وهو يتحدث عن الطبيعة الشاملة للدين الإسلامى.

غاية ما هنالك أنه مطالب بتقديم قدوة حسنة جديدة فى

أسلوب ممارسة السياسة، وأن يضبط برامجه وممارساته السياسية بالضوابط والمضامين الإسلامية.

وكما ذكر الماوردى فإن مهمة الحاكم الإسلامى (حراسة الدين وسياسة الدنيا)، وعندما يكون الإسلاميون فى المعارضة فلابد أن يتدربوا ويتفقهوا فى أمور سياسة الدنيا فهذا الأمر وثيق الصلة بنجاحهم فى صراعهم مع السلطات المعادية أولا، ثم بناء النموذج الإسلامى البديل من موقع السلطة ثانيا.

إن عدم اشتغال الإسلاميين بالعمل السياسى، معناه الانسحاب من الساحة الأساسية للتغيير، والانشغال بأمور فرعية، أو مشاغبات مع السلطات لا تجدى على المستوى الاستراتيجى، كما أن الانسحاب من العمل السياسى يؤكد سيادة المفهوم العلمانى للعمل السياسى، ويفرغ الحياة السياسية من المضمون الإسلامى، ويؤدى إلى تخلف الحركة الإسلامية المعزولة عن حقائق ومشكلات العصر والمجتمع، ويحولها إلى مجرد جماعات ضغط حول بعض القضايا المتناثرة المتعلقة بالدين، أكثرها فى المجال الأخلاقى والسلوكى.

والأحزاب السياسية (كالعمل السياسى) ليست مدلولات مطلقة بحيث نحكم عليها حكما شرعيا.. فما الأحزاب السياسية

إلا مجموعات أو جماعات أو فرق تلتف حول برامج فكر معين وتسعى لنشرها فى المجتمع، وإقامة الحكم على أساسها.

وهذه القضية يمكن النظر إليها من زوايا عدة:

١ - إن مدلول الألفاظ والمصطلحات يختلف من عصر لعصر.. وعندما نأخذ كلمة أو مصطلحا من القرآن الكريم يجب أن نفهم معناه كما ورد فيه ولا نسقطه ظاهريا على نفس اللفظ عندما يستخدم استخداما آخر..

﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُم وكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُون﴾.

والحزب هنا فى المعنى القرآنى بمعنى الفريق أو الجماعة أو الطائفة..إلخ.. وبالتالى فإن استخدام هذه الآية لإدانة الأحزاب السياسية بصورة «شرعية» استخدام غير صحيح يستخدم الكلمة فى غير موضعها وفى ظروف غير ظروفها.. بل إن مراجعة استخدام «القرآن» للحزب فى مجمل الآيات والسور يوضح أن لفظة «حزب» كما ذكرنا تعنى فرقة أو جماعة، وهى لفظة محايدة بمعنى إنها وعاء يمكن أن ينطوى على الخبيث أو الطيب. فحدثنا الحق تبارك وتعالى عن حزب الله وعن حزب الشيطان.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[المائدة: ٥٦].

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ [المجادلة: ١٩].

ولا نريد أن نطيل فى هذا الأمر لوضوحه فى القرآن الكريم.. ولكن لاشك أن مصطلح الحزب السياسى فى عصرنا وفى بلادنا له مدلول متميز وخاص لابد أن نحدده كى تكون المقاييس دقيقة. ولكننا أردنا فى البداية أن نرفع الجرم عن مصطلح «حزب» فى حد ذاته.

٢ ـ لاشك أن النظام السياسى فى بلادنا قائم على التعدد الحزبى وفقا للمفاهيم العلمانية الغربية للتعدد.. ومن المؤسف أنه لم ينقل إلا سلبيات وشكليات التجارب الغربية.. ودون أن يحقق جوهر الفكرة الديمقراطية وهو إمكانية تداول السلطة بين الأحزاب بصورة سلمية وعبر الانتخابات.

وقد رفض قانون الأحزاب قيام الأحزاب على أساس دينى، أو هذا بالأحرى تفسير السلطة له، لأن قانون الأحزاب يرفض قيام أحزاب على أساس التفرقة الدينية، وهذا الشرط يسقط فى حالة

حزب العمل المفتوح لكل المصريين: مسلمين وأقباطا. وفى المقابل فإن قانون الأحزاب يلزم الأحزاب كافة بمبادىء الشريعة الإسلامية (المادة الرابعة). وتجب التذكرة بأن المسيحية لا تقدم شرائع اجتماعية ولاتتضمن قواعد لتنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والدولية كما هو الحال بالنسبة للدين الإسلامى.

إن حق الإسلاميين فى تنظيم الأحزاب السياسية حق أصيل لابد أن ينتزع ويحافظ عليه، وهذا تمهيد ضرورى لإقامة النظام الإسلامى.. إن الصحوة الإسلامية هى صحوة شعب بأسره ولا يمكن أن تتم سرا أو خفية.. فقد تجاوزت الحركة الإسلامية هذه المرحلة.. حيث إن مجمل النشاط الإسلامى يتم على مرأى ومسمع من السلطات وهذا من طبيعة الأشياء.

وبالتالى فإن ممارسة حزب العمل للنشاط الإسلامى كسب للحركة الإسلامية ككل ولابد من الحفاظ عليه لأن انتزاع حق الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابد أن يسبق إقامة الحكم الإسلامى ، فلابد من ممارسة العمل السياسى بصورة مباشرة لتعديل الأوضاع القائمة عن طريق الانتخابات، استنادا لتعبئة

الجماهير لفرض انتخابات حرة نـزيهة.. أو عن طريق حركة سلمية للرأى العام إذا بلـغت من القوة والشدة حدا معيـنا لابد أن تهيىء الظروف السياسية لإحداث التعديل المطلوب، عملا بالقول المأثور (كما تكـونوا يولى عليكم)، فـالحكام لا يفرضون مواقفـهـم بقوة الأجهـزة القـمعيـة فحـسب، بل بـرضاء الـناس وموافـقتـهم أو صمتهم.. وعندما يعلن الشـعب بمختلف الصور والأشكال رفضه للسـياسة الرسميـة فلابد أن تسقـط هذه السياسة، لأن أى سـياسة رسمـية لا قيـمة لهـا إذا لم يلتـزم بها المحـكومون ويـنفذونـها.. فالحكام ليسوا فى جزيرة معزولة.. والمحكومون فى جزيرة أخرى، بل العلاقات متشابكة ومتداخـلة فإما تعاون وإما رفض ومقاطعة تفتح الطريق للتغيير.

ولاشك أن مـظاهر الـصحوة الإسلامـية فى مـجال العـبادات والسلوكيات هى بداية المفاصلة والفرز بين الحكام والمحكومين.. ففى حيـن ينتهج الحكـام سياسة لا تشجع الـعودة للقيم الـدينية، يقـبل المحكومـون على دينـهم.. ويتـخذونه مرشـدا فى حياتـهم الخاصة بصورة متزايدة، وهذه هى البداية. ومهمة الحركة الإسلامية أن تنـقل هذه الصـحوة إلى مسـتوى أعلى.. إلـى ساحة النـضال

السياسى المباشر لتهتم بكافة مظاهر وأشكال التبعية للغرب.. وبالنظم التى تحكم قواعد العمل السياسى.. والتى تحاول أن تهمش العمل الإسلامى لتحصره فى بعض أنشطة المساجد والتى تبتعد بدورها عن الحديث فى السياسة. والعمل السياسى الإسلامى يعنى تتبع ومتابعة كافة مظاهر وأشكال السياسة المتغربة، وطرح الرؤية الإسلامية فى مواجهتها.. هو مطاردة فكرية واعية، ومحاصرة لهذه الاختراقات التى غشت عقلية الأمة وبالأخص فى رأسها (الحكم)، والعمل السياسى الإسلامى له بعد إصلاحى.. بمعنى مناصرة المظلومين والمستضعفين.. وقطع الطريق على هذا القرار أو ذاك، على هذا التشريع أو ذاك، مما يمكن أن يحيق الضرر بالأمة.. وهو عمل إصلاحى لأنه يتم فى إطار سيطرة الحزب الحاكم.. وهو من قبيل تقليل الخسائر.. وحصرها قدر الإمكان، إلا أنه عبر هذه المناجزات الإصلاحية، يتم إعداد الأمة وتربيتها للمنازلة الكبرى: التمكين لدين الله.. وإقامة نظام يلتزم بالإسلام شكلا وموضوعا، ويجعله الإطار المرجعى لكافة توجهاته، وهذا يستدعى المشاركة فى انتخابات المجالس المحلية ومجلس الشعب.. وكافة الهيئات والنقابات المنتخبة، ويجعل فى مقدمة أولويات النشاط الإسلامى المطالبة بأقصى ضمانات ممكنة

للعمليات الانتخابية باعتبارها الـوسيلة السلمية للتغيير.. ووضع الحكومة فى موضع المعتدى عندما ترفض اللجوء النزيه لصناديق الاقتراع.

إذن مهمـة الحركة الإسلامـية أن تدخل معـترك النشـاط الحزبى والسياسى.. وأن تغلب المفهوم والمـضمون الإسلامى لهذا النشاط (لا أن تقف موقفا سلبيا وتحاول أن تخلق لها عالما خاصا بها).

٣ ـ أحيـانا ترفض الحـزبية مـن زاوية أنهـا تعددية والإسـلام ضد التعددية لأنه أمـة واحدة وحزب واحد (حزب الله)... ولاشك أن الإسلام يعنـى توجه الأمة فى اتجاه عـام واحد.. إلا أن هذا التـوجه الـدستـورى العـام يفـتح المجـال واسعـا لكـثيـر من الاجتـهادات وتنـوع الآراء والتعـدد فى إطار الإسـلام.. وقد اختلف الصحابة فى الاجتهادات.. وتعددت المذاهب فى إطار الإسلام عبـر كافة العصـور.. دون أن يؤثر ذلك عـلى أصول عقيـدة التوحيـد، لأن هذه التعـددية لن تكـون فى الأصول.. ولكنها فى الفقه الذى يعنـى الاجابة الشرعية على التساؤلات المتجددة واللا نهائية المنبثقة من مشكلات الحياة المتجددة واللا نهائية، وطالمـا اعتمد الفقه على عقـل الإنسان، فإن الاختلاف فى الـرأى والاجتهاد سُـنة من سُنَن الله فـى خلقه.. لا مـجال

لتبديلها ولا للخوف أو القلق منها. فهذا ثراء لحياة البشر.. وفيه الخير كل الخير.

إذن التعددية في إطار إسلامي ليست مرفوضة، سواء أخذت شكلا حزبيا سياسيا أو أشكالا أخرى، بل يمكن أن نقول إن السماح بتعدد الآراء فريضة.. وإلا لفقدت الشورى معناها وجوهرها.

وإذا كانت التعددية في الإطار الإسلامي واجبة ومفروضة، فكيف نرفض التعددية في إطار نظام علماني؟ فنحرم أنفسنا من الوجود.. ونترك الساحة خالية للعلمانيين. ونتصور أن العمل الإسلامي المحاصر (في بعض المساجد) يكفي ويغني عن العمل السياسي بمعناه الشامل المشار إليه؟

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وفي تفسير الآية الكريمة التي وردت في سورة آل عمران (١٠٤): ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾..

جاء في تفسير المنار للإمام الشيخ محمد عبده، ومحمد رشيد رضا أن للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر درجات ومراتب:

١ ـ دعوة الأمم الأخرى للإسلام.

٢ ـ دعوة المسلمين بعضهم بعضا.

أ. الدعوة العامة الكلية:

بيان طريق الخير وتطبيق ذلك على أحوال الناس. يقوم على هذا الطريق خواص الأمة العارفون بأسرار الأحكام وحكمة الدين وفقهه وهم المشار إليهم بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا نَفَر﴾ ومن مزايا هؤلاء: تطبيق أحكام الله تعالى على مصالح العباد فى كل زمان ومكان.

ب. الدعوة الجزئية الخاصة:

وهى ما يكون بين الأفراد وبعضهم البعض (المؤمن مرآة أخيه) حديث.

وجوب تأليف جمعية للدعوة إلى الخير:

إذا كان كل فرد من أفراد المسلمين مكلفا بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بمقتضى الوجه الأول للتفسير، فهم مكلفون بمقتضى الوجه الثانى أن يختاروا أمة منهم تقوم بهذا العمل لأجل أن تتقنه وتقدر على تنفيذه، فإقامة هذه الأمة الخاصة فرض عين يجب على كل مكلف أن يشترك فيه مع الآخرين.

وهذه الأمة يدخل فى عملها الأمور العامة التى هى من شأن الحكام وأمور العلم وطرق إفادته ونشره، وتقرير الأحكام، وأمور العامة الشخصية، ويشترط فيها العلم بذلك، ولذلك جعلت أمة، وفى معنى الأمة القوة والاتحاد، وهذه الأمور لا تتم إلا بالقوة والاتحاد، فالأمة (الجمعية) المتحدة لا تقهر ولاتغلب من الأفراد، ولا تعتذر بالضعف يوما ما، فتترك ما عهد إليها وهو ما لو ترك لتسرب الفساد إلى مجموع المسلمين.

وأعمالها لا تتم إلا بأمور كثيرة:

١ ـ العلم بالقرآن والسُنة.

٢ ـ العلم بحال من توجه إليهم الدعوة.

٣ ـ علم التاريخ.

٤ ـ علم تقويم البلدان (الجغرافية).

٥ ـ علم النفس.

٦ ـ علم الأخلاق.

٧ ـ علم الاجتماع.

٨ ـ علم السياسة.

فالمراد بالأمة التى تقيمها الأمة لذلك ما يعبر عنه فى عرف هذا العصر بالجمعية. ومن أعمال هذه الأمة (الجمعية) الأخذ على

أيدى الظالمين، فإن الظلم أقبح المنكر والظالم لا يكون إلا قويا، ولذلك اشترط فى الناهين عن المنكر أن يكونوا أمة، لأن الأمة لا تخالف ولا تغلب، فهى التى تقوّم عوج الحكومة، والمعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[الشورى:٣٨].

وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون فى الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهو عام فى الحكام والمحكومين ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم، وقد ورد فى الحديث (لابد أن يأطروهم على الحق أطرا).

«كلا ـ والله ـ لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم يلعنكم كما لعنهم (بنى إسرائيل)» (تأطرونه على الحق، تعطفونه عليه)، ومعنى الآية على هذا الوجه أنه يجب أن تكون قوة المسلمين تابعة لهذه الأمة التى تقوم بفريضة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهى بمعنى مجالس النواب فى الحكومات الجمهورية والملكية المقيدة.(انتهى الاقتباس).

* * * * *

وهكـذا فإن الأمر بـالمعروف والـنهـى عن المنـكر لا يمـكن أن نحـصره فـى بعـض الأمور الأخـلاقية والـسلـوكيـة.. فلا يـوجد معروف أعرف من الـعدل، ولا منكر أنكر من الـظلم.. وهذا لب العمل السياسى الإسلامى، كما أن تأليف جمعية خاصة (أو حزب أو جمـاعة) لتولـى هذه الفريـضة أمر لا مـندوحة عنـه لتحقـيق واجب الـتمـكيـن لديـن الله، وليـس المهـم هو الاخـتلاف حـول مصطلح (جمعية أو حزب أو جماعة)، بل المهم هو مضمون المهمة السياسية وعنوانها (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر).

والمعروف فـى أوسع تعريـفاته (هو كـل فعل حســن إذا عرف فاعله ذلك أو دل عليه) والمنكر (كل فـعل قبيح عرف فاعله قبحه أو دل عليه) وذلك فى تراتب وتصـاعد من حيث الأهمية.. الأمر الذى يجعل الأفعال والقرارات الحسنة للحكومات هى الأهم لأن حسنـها ينعـكس على المجـتمع بأسـره، كذلك الأمر فـيما يتـعلق بالقـرارات المنكرة (للحـكومة) لأن قبحـها وسوءها يعم المجـتمع بأسره أيضا.

وإن تخلى بنى إسرائيل عن هـذه الفريضة هو سبب غضب الله عليها:

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٥ ـ ١٦٦].

ولذلك قال الرسول «ﷺ»: «إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»، وكذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه (أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر).

وتفتح لنا الآية الكريمة ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[الأعراف: ١٩٩] بابا واسعا لمفهوم المعروف (العرف)، فالعرف كل ما تعارف عليه الناس من حسن من عادات وتقاليد ولا يقتصر على الأوامر الإلهية المنصوص عليها مباشرة فى القرآن الكريم والسنة الشريفة.

الأمر بالمعروف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف. وفى اللسان: المعروف ضد المنكر. والعرف ضد النكر، والعرف والعارفة والمعروف واحد ضد النكر، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتأنس به وتطمئن إليه. والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه، والإحسان إلى الناس،

وكل ما ندب إليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالية. أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه والمنكر ضد ذلك جميعه.

إن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذين ينفرون منه لقبحه أو ضرره، ويذمونه ويذمون أهله، وتثبت هذه الآية أن العرف أو المعروف أحد أركان الآداب الدينية والتشريع الإسلامى. وأن تتبع كلمة (المعروف) فى الآيات القرآنية الخاصة بالبيعة وواجبات الأمة الإسلامية والعلاقات الزوجية يعنى (أن المعروف فيها هو المعهود بين الناس فى المعاملات والعادات، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والأوقات. فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس مخالف لنص كتاب الله تعالى. ولشيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة فى المعروف «العرف» الذى يحكم فيما لا نص بخصوصه، وفيما لا يعارض بنص). وهذا واحد من ضرورات العمل السياسى الإسلامى، فالناس قد تختلف فيما يعرفون وفيما ينكرون ويكون عمدتهم فى الترجيح (جمهور العقلاء والعلماء وأهل الأدب والفضيلة فى كل عصر). ولابد أن يكون واضحا أن العمل السياسى الإسلامى وثيق

الارتباط بالفقه، أو بالأحرى هو الفقه والاجتهاد الإسلامى المعاصر فى المشكلات الكبرى التى تحكم تنظيم المجتمع فى مجالات (السياسة ـ الاقتصاد ـ والاجتماع).

والحزب الإسلامى لابد أن يستند فى مواقفه إلى جهود فقهية إسلامية مخلصة.. تستند إلى العلماء المتحررين من السلطان والمثقفين والمفكرين الإسلاميين الذين يبذلون جهودا جادة ومعمقة فى أمورالدين، سواء أكانوا أعضاء فى الحزب أو حالت ظروفهم دون ذلك، ويتعاونون مع الحزب فى سبيل خدمة الدعوة الإسلامية.

ولاشك أن العمل الإسلامى فى مصر يعانى من «أزمة علماء» إن صح التعبير.

فالهيئة التاريخية الرئيسية للعلماء (الأزهر) والتى كان من المفترض أن يناط بها مهمة التصدى للاجتهاد فى مشكلات العصر، قد سقطت فى قبضة السلطة.. التى احكمت الخناق حولها.. وقتلت إمكانات الإبداع والتطور الفكرى.. وحولتها إلى مجرد مؤسسة لتغطية قرارات وسياسات السلطة، سواء فى المجالات الخارجية (كامب ديفيد والصلح مع اليهود.. وصداقة الأمريكان.. وكراهية بعض الأنظمة العربية) أو فى المجالات الداخلية.

وإن كنا لا ننكر على الأزهر العديد من علمائه المخلصين، ومجمع بحوثه وحتى مجلته التى تقاتل لتحافظ على بعض الاستقلال عن الدولة كما اتضح فى قضية الربا.. وتحديد النسل. ومن رجال الأزهر تعلمنا وسنتعلم.. ولكننا نناقش دور المؤسسة من زاوية أنها لم تعد على مستوى الأحداث، وليست على مستوى الصحوة الإسلامية.. وتخضع أكثر فأكثر لهيمنة الدولة.. كما أن رجال الأزهر كأفراد نادرا ما يتجهون للعمل السياسى العام.. بحيث أصبح القلب الأساسى للحركة الإسلامية، ومن كل الاتجاهات من مجاهدين غير أزهريين.. لأن الجهاد لم يعد صناعة الأزهر.. الذى تحول إلى نوع من الدواوينية.

ولاشك أن الإسلام يبيح ذلك (فلا كهنوت فى الإسلام) وكل مسلم قادر على دراسة دينه والتفقه فيه فى منزله أو حلقات المساجد.. أو داخل حزبه أو جماعته، وسيبارك الله وسيفتح الله على المخلصين فى عمل الدعوة الإسلامية ليتفقهوا فى الدين فـ(رب حامل فقه لمن هو أفقه منه). ولكن لاشك أن الصحوة الإسلامية كانت ستندفع بقوة أكبر لو كان الأزهر ظهيرا لها.. وبدلا من أن يكون قوة مضادة لها وفقا لتوجيهات الدولة.

ولقد يسر الله الأمر للمخلصين فى حقل الدعوة لاستكمال وعيهم ودراستهم الإسلامية.. بجهودهم الذاتية.. فنحن نعيش فى

عصر المطبعة.. ونتايع الجهود الفكرية.. والاجتهادات الإسلامية الموفقة.. فى مختلف بقاع المعمورة .. وهى كلها رصيد متبادل بين مختلف الأحزاب والحركات الإسلامية.

فالعمل السياسى الذى نقصده مقترن بالفقه والاجتهاد الإسلامى المعاصر، وليس مجرد مسايرة عملية للواقع.. لتحقيق بعض الأهداف السياسية الوطنية.. أو شغفا بلعبة السياسة من حيث هى مجرد صراع حول مقاعد السلطة والبرلمان، أو كما قال الإمام على (رضى الله عنه) (اللهم إنك تعلم أنه لم يكن ما كان منا منافسة فى سلطان ولا التماس شىء من فضول الحكام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح فى بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك).

والاجتهاد فى عصرنا خاصة بعد أن تفرقت السبل بين العلوم الدنيوية والعلوم الشرعية ليس مناطا بعالم فذ.. فالاجتهاد فريضة على الأمة تضطلع بها كفائيا صفوة مسلمة من مختلف التخصصات.. لابد أن تبذل جهدا جماعيا لتطوير الفقه الإسلامى فى الواقع المعاصر (السياسى - والاقتصادى - والاجتماعى).. ونحن لا ننطلق من نقطة الصفر.. فقد بدأت هذه الجهود تثمر بالفعل ثمارا طيبة بإذن الله.

والنقطة التى تشغلنا فى هذه الرسالة ليست كل الاجتهادات

المتعلقة بالبرنامج الإسلامى لحزب العمل (فهذه تحتاج لرسالة أخرى) بل نركز على فقه تغيير الواقع العلمانى الراهن، وكيفية إقامة النظام الإسلامى، باعتبار أن هذه هى العقدة الأساسية التى تقف حجر عثرة دون تطوير الحركة الإسلامية فى بلادنا رغم طول تاريخها.

١. التغيير الإصلاحى:

التربية العقائدية والروحية ليست هدفا فى حد ذاته، ومنهجا ثابتا لا يتبدل ولا يتغير مهما تغيرت الظروف والأحوال. إن توسيع القاعدة الإسلامية فى صفوف الشعب لن يؤدى تلقائيا، وفى نهاية المطاف - وبمجرد مرور الزمن - إلى إقامة دولة إسلامية. إن الانشغال بقضية التربية والتنشئة لن يؤدى إلى أسلمة المجتمع تدريجيا.. دون أى مصادمات مع السلطات.. ودون الدخول فى مواجهات متوالية معها.. وبدون استراتيجية أو تخطيط سياسى.

إن بناء القاعدة العقائدية المؤمنة برسالة الإسلام وقيمه، وتوسيع هذه القاعدة على أساس تربوى استنادا للقرآن والسُنة، هو مما لا يختلف عليه أحد من العاملين فى الحقل الإسلامى، إلا أن تحديد هدف واضح لهذا الجيش الذى يتم بناؤه أمر بالغ الأهمية. إن جوهر رسالة الإسلام هو التمكين لدين الله فى الأرض، وهو التمكين الذى لا يتأتى إلا من خلال سلطة الدولة.. ولابد للحركة

الإسلامية أن تتضمن فن وعلم (فقه) العمل السياسى لتحقيق هذا الهدف.. إذا اتفقنا على رسالة الإسلام الشاملة، وأنه دين ودولة.. شريعة وعقيدة.. ولابد لهذا الجيش كى ينتصر أن يكون له برنامج متواصل للتدريب (مناورات)، ومعارك ومناوشات صغرى ومتوسطة، لأن المناورات وحدها لا تبنى الجيوش المقاتلة الحقيقية، وكل ذلك تمهيدا للمعركة الفاصلة والحاسمة.

نحن لا نشير إلى استخدام القوة المسلحة (باستخدام لفظ الجيش والمصطلحات العسكرية) وإنما على سبيل الاستعارة، ذلك أن العمل السياسى متماثل إلى أبعد حد مع العمل العسكرى فى مفاهيم (التكتيك - والاستراتيجية)، ولكن بوسائل سلمية، ولذلك قيل عن حق (إن العمل العسكرى هو الامتداد الطبيعى للعمل السياسى ولكن بوسائل أخرى عنيفة).

إن خطة التغيير الإسلامى عن طريق تغيير عناصر المجتمع فردا فردا، وصولا إلى المجتمع الإسلامى الكامل، هى خطة بسيطة غير واقعية لا أساس لها من القرآن والسُنة، ولا من السيرة النبوية الشريفة، ولا أساس لها من التاريخ الذى أمرنا الله بدراسته لأخذ العبْر منه ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾[الروم:٩].

أوضح القرآن الكريم السُنن العامة والأساسية للتغيير.. ومن أبرزها أن التغيير ليس مناطا بقضية الأقلية والأكثرية.. فإن القرآن الكريم لم يشترط ذلك بل على العكس أشار إلى خلافه، نقول إن التغيير دائما يكون مناطا بالقلة المؤمنة بدليل قول الله عز وجل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾[سبأ:١٣] وقوله سبحانه ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[الأنعام:١١٦] وتلك سنة الله فى أرضه فمن أين سنأتى بهذه الكثرة المأمولة..؟ ويقول سبحانه ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[يوسف:١٠٣]. والإسلام لم ينتصر بالغلبة العددية، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[البقرة:٢٤٩] ويقول سبحانه ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾[التوبة:٢٥] ويقول ﷺ: «وليـنزعن الله الهيبة من قلوب أعدائكم وليقذفن فى قلوبكم الوهن»، وبعد أن سألوه: أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال «بل أنتم يومئذ كثير ولكن غثاء كغثاء السيل».

ولو تأملنا فى هذه السنة من سُنن الله.. فى مجال العمل السياسى.. نقول: نعم القلة الصلبة الإيمان هى نواة وقائدة التغيير، ومن عوامل نجاحها أن تجذب إليها الأغلبية الصامتة

بالتأييد النشيط فى الحد الأقصى أو التعاطف والحياد فى الحد الأدنى.. ويتصور البعض أن مصطلح «الأغلبية الصامتة» يمس الحياة السياسية المعاصرة فى بلادنا.. والحقيقة أن هذه الأغلبية من طبائع الأمور.. وإن صمتها هو «موقف» لصالح الأمر الواقع.. وخروجها عن الصمت هو علامة النهاية للنظام القائم. على الدوام فإن المشتغلين فى العمل العام ـ سواء الصالحين أو الطالحين.. من أهل الحق أو أهل الباطل ـ أقلية فى المجتمع.. أما الغالبية الساحقة فتنشغل فى أمورها اليومية عادة، إلا فى اللحظات التاريخية للتحول وهذا ما أصبح يسمى فى عصرنا بـ(الثورة).

أما نجاح الأقلية الإسلامية فى مهمتها فيعتمد على الجسور المتينة التى تربطها بصورة متزايدة بالأغلبية الصامتة.. وليس عن طريق تحويل هذه الأغلبية إلى مدارس التربية والإصلاح الإسلامى.. فستظل أى حركة إسلامية فى المعارضة عاجزة عن توفير سبل التربية الإسلامية الصحيحة لأغلبية الشعب فى ظل الهيمنة البيروقراطية لسلطة الدولة وسيطرتها على نظم التعليم والسياسات الإعلامية.

كما أن الخدمات الاجتماعية التى يقدمها التيار الإسلامى، لا يمكن أن تغنى عن العمل السياسى المباشر فى صفوف الجماهير..

لأننا نريد أن نعلم الجماهير أن تتحرك لانتزاع حقوقها.. ورفع الظلم عنها.. فإذا كانت القلة حقا هى التى تتصدى للتغيير (فى ظروفنا الخاصة التى تستند إلى ضرورة التغيير بالوسائل السلمية) فهى لن تنجح فى مهمتها بدون استنهاض الجماهير لمهمة التغيير فى اللحظات الفاصلة.. ولا يمكن الوصول إلى هذه اللحظات الفاصلة، بدون الدخول فى معارك سياسية جزئية إلى جانب الجماهير وفى قيادتها.. لتعليمها إمكانية وواقعية مواجهة الطغاة.. كما يحدث فى اضرابات العمال لانتزاع الحقوق الشرعية، أو تنظيم حركة مطلبية فى هذا القطاع أو ذلك، حول هدف شرعى أو مصلحة حالة.

لقد التف دائما حول الأنبياء قلة، وقد كان هذا كافيا للجهر بالدعوة، والجهر بالدعوة كان يعنى مزاحمة أصحاب السلطة فى سلطانهم القائم على عبادة الأوثان أو إدارة المجتمع وفقا للأهواء والمصالح. والذى حول دعوة الأنبياء إلى دعوة سياسية هم الخصوم (أعداء الله). فإذا كان موسى (عليه السلام) يدعو إلى عبادة الله ، ووحدانيته، فإن فرعون كان يخشى على سلطته وامتيازاته الدنيوية التى بلاشك يفقدها إذا انتصر الدين الجديد. وبالتالى فإن الدعوة إلى الله تتحول إلى نزاع سياسى.. لأنها تدعو

إلى تنظيم المجتمع على أسـاس جديد، وإن الجهر بهذه الدعوة هو عيـن الصدام والمواجـهة، لأنها تـدعو إلى شـرعية «جديـدة» فى مواجهـة «شرعية الطاغـوت» فيقاتل الأخـير دفاعا عن امتـيازاته ومصالحه ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾[القصص:٣٨ ـ ٣٩].

ولنا فى سيرة الـرسول (عليه أفضل الصلاة والسـلام) تفصيل فى هذا الأمر.. والتى لـو درسناها بعين فاحصة لوجدنـا فيها أبلغ الدروس السياسية فى طرائق وأساليب نشر الدعوة.

يتـردد على سبـيل المثال خـطأ شائع فـى التفرقـة بين المرحـلة المكية.. ومرحلة الهجرة.. إن الصـدام بدأ فى المرحلة المدنية، وهذا غـير صـحيـح إلا من حـيث أذن الله بـالقـتال (استخـدام القـوة العسكرية)، ولكن بالمفهوم السياسى فإن المرحلة المكية تنقسم إلى مرحلتين:

١ ـ مرحلة سرية الدعوة: وهى ثـلاث سنوات فقط، حيث كان لابد من السرية المطلقة لتربيـة وخلق النواة الصلبة الأولى التى لم تتجاوز ٦٠ صحـابيا، صحيح أن الدعوة كشـف أمرها خلال هذه

السنوات.. إلا أن عدم الجهر بها كان يطمئن القوم فلن يضيرهم شيء لو تجمع نفر من أقرباء وأصدقاء سيدنا محمد ﷺ حوله ليعبدوا الله سرا.

وعن هذه المرحلة، تذكر بعض الروايات أن أحد التجار كان في زيارة للعباس في بيته فرأى رجلا وامرأة وطفلا يتقدمون فيصلون بصورة تخالف ماكانت تعهده قريش من الصلاة. فسأل التاجر العباس عنهم فقال له: هذا ابن أخي (علي ابن أبي طالب) وهذا ابن أخي (رسول الله) وهذه زوجته (خديجة). وإن هذا يزعم أن الله يكلمه من السماء، ووالله ما أعلم على ظهر الأرض أحدا على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة.

ويقول منير الغضبان تعليقا على مثل هذه الروايات: «لم يكن إذن لملاحظة قريش بعض هذه الظواهر الغريبة، ما يثير غضبها طالما أن القوم مكتفين بأنفسهم، منكفئين على ذواتهم».

ولكن هذا الموقف اختلف بعد أن نزل التوجيه الإلهي بعد قرابة ثلاث سنوات: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِين﴾ [الحجر: ٤٩].

فالجهر بالدعوة هو المواجهة والصدام.. هو الإعلان عن الانقلاب الذي سيبدل كيان هذا المجتمع. ذلك أن أئمة قريش لم

تعنهم فكرة أنها (دعوة للعالمين)، فقد كان كل همهم فى سلطانهم ومصالحهم التى تكونت وتشابكت حول عبادة الأصنام.. وجعلت الكعبة وجعلتهم محورا لأنشطة عرب الجزيرة، وما حولها من أمصار. إن الدعوة الإسلامية بكل شموخها وعظمتها لم تكن فى أعينهم «أئمة قريش» إلا دعوة «لقلب نظام الحكم».. وكان الجهر بالدعوة معناه بدء الصدام ، ثم الصلاة فى الكعبة نوع آخر من تصعيد المواجهة.. ثم عرض دين الله على القبائل فى موسم الحج تصعيد آخر.. وهكذا.

وتصاعد القمع والإيذاء.. الذى نجمت عنه هجرتان للحبشة لم تشملا بالطبع كل المؤمنين، فظل الباقون ـ وفى مقدمتهم رسول الله «ﷺ» ـ فى مكة حتى الهجرة إلى المدينة التى مثلت طورا جديدا فى المواجهة يستند إلى قاعدة ودولة تبيح إمكانية استخدام القوة دون تعريض الدعوة إلى الفناء بفناء معتنقيها.

إذن ـ ومع ملاحظة فروق واختلاف ظروف الزمان والمكان ـ فإن الدعوة لإقامة دولة إسلامية.. هى بداية الصدام مع السلطات العلمانية.. وإن إقناع الناس بصلاح الدولة الإسلامية لا يتم إلا بمقارنة متواصلة مع ممارسات الدولة العلمانية وهذا هو لب العمل السياسى.. (وهذا هو لب المواجهة التى لا تفلح فيها المداراة

ومحاولة خداع الخصوم، وافتراض غبائهم). نحن على العكس نفترض ذكاءهم.

إن الدفاع عن المصالح المكتسبة أمر غريزى.. وإن المعوج ينفر من المستقيم بصورة تلقائية، ولكن الحكومات المعاصرة لا تستند فقط إلى هذا الحس الغريزى..فالشر لا يعدم الذكاء، بل يتسلح بأذكى العقول.. بل وبالاستشارات الدولية المعادية للإسلام ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾[إبراهيم:٤٦].

وإن توكل الحركة الإسلامية على الله.. لا يعنى عدم الأخذ بالأسباب.. والإعداد السليم للمواجهة بالخطط الذكية.. وإن الصراع على السلطة هو بيت القصيد، ولا يجب التعفف من ذلك.. فالسلطة ليست مطلوبة فى حد ذاتها ـ فى عقيدة المؤمن ـ فحسب بل كل الدنيا ما هى إلا ممر «وليست مقرا».. هى دار ابتلاء واختبار وعبور إلى الآخرة.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئًا﴾[النور: ٥٥].

وهذا هو الفهم الصحيح للسيرة النبوية الشريفة.. ولماذا

تمحورت الدعوة (حركيا) حول قضية السلطة والوصول إليها؟
فلم يكن النهج النبوى الشريف يفصل بين توسيع قاعدة المؤمنين وبين قضية السلطة التى بدأت فى المدينة وانتهت فى مكة، ولم يكن منهج الدعوة مجرد العمل على الزيادة البسيطة لعدد المؤمنين على عدد المشركين، فعندما تم فتح مكة كان المؤمنون لا يزالون قلة فى جزيرة العرب، ثم كان الاستيلاء على مقاليد الحكم والمجتمع وتوحيده إداريا مرحلة جديدة لمواصلة الدعوة لدين الله من موقع القوة.. وهناك أقسام من البشر تنفتح قلوبهم من الانتصارات.. باعتبار الانتصارات من علامات الصحة والسداد.. وليس كل البشر ممن ينطبق عليهم «السابقون الأولون».. وإلا لما كانوا سابقين وأولين! فالنصر باب جديد واسع لدخول الناس فى دين الله أفواجا ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١) وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (٢) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١ ـ ٣].

إن المواجهة الصريحة مع الحكام الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ويصمون آذانهم ويستغشون ثيابهم، فريضة واجبة دائما أبدا.

(إن موسى ذكر فى القرآن ١٢٠ مرة، فما ذكر اسم نبى ولا ملك كما ذكر اسم موسى .

إن قصة موسى لم تذكر للتسلية، وإنما حتى لا يتحول الخلفاء إلى فراعنة، وحتى تعرف الشعوب أيضا أن عبادة غير الله جريمة، وأن الرضا بالذل ستكون عقباه الهوان في الدنيا والآخرة. ولعل القرآن الكريم تحدث كثيرا عن أن الأتباع يلحقون متبوعيهم فى جهنم لكى يفطم النفوس عن هذه التبعية الذليلة).

إن عدم مقاومة الطغيان بصورة دائمة يورث العاملين فى الحقل الإسلامى الذلة والمسكنة والاستضعاف بينما العزة يجب أن تكون لله ولرسوله وللمؤمنين.

ولا يمكن أن تكون مهمة العاملين فى الحقل الإسلامى أن يعرضوا الدين (بصورة نظرية) أى بدون مناظرة واشتباك ومناقشة مع الأوضاع العلمانية السائدة.. لاحظ أن القرآن لا يعرض الدين بصورة مجردة، بل فى إطار اشتباك ومناظرة دائمة مع آراء المشركين.

يجب أن يكون منهج الداعين لشريعة الله ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أن يكون منهجهم منهج السحرة الذين آمنوا بموسى فى حضرة فرعون فتوعدهم بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وبصلبهم وبقتلهم..

وبالفعل صدق شيخنا (رشيد رضا): هل آيات القرآن هذه للتسلية أو من قبيل قصص الأطفال التى تروح عنهم قبل النوم!

لا بل نحن نعلم أن القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاب تاريخ.. وأن القصص القرآنى يمكن أن نستخرج منه عشرات الأحكام.

ولا يفهم من موقف السحرة أنه موقف مغامر ومتهور.. (وإلا لأوضح القرآن ذلك) ولكن الحقيقة أن موقف فرعون هو المغامر والمتهور، لأنه استبد بتصور ألوهيته من دون الله، فحق عليه العذاب والخسران فى الدنيا والآخرة. أما السحرة فلم يفعلوا إلا أن آمنوا بإله موسى بعد أن اتضحت بيناته.

إن ما ندعو إليه هو مقاومة وتغيير المنكر باللسان.. وباليد.. أما اللسان فمفهوم، وأما اليد فهو فى ظروفنا الراهنة تغيير الحكومة بالوسائل السياسية الجماهيرية، فإذا كان المتعارف عليه فى مجتمع محدد أن الهيئات التى تتولى السلطة السياسية هى الأحزاب.. فلابد أن يكون للإسلاميين حزب، وأن يضغط بكل الوسائل من أجل إقامة انتخابات حرة نزيهة.. وأن يحمى نتيجة الانتخابات حتى لا تتكرر مأساة الجزائر، فإذا امتنعت الحكومة وتعنتت عن سلوك هذا السبيل.. فلا يبق أمام الحزب الإسلامى إلا تنظيم المعارضة الجماهيرية وانتهاج كافة أشكال المقاومة السلمية و«السلبية» لتغيير النظام أو إجباره على الاحتكام لصناديق الاقتراع.

ولكل عصر وسائله فى التغيير.. فوسائل التغيير ليست من ثوابت الدين أو واردة فى نصوص القرآن والسُنة، والوسيلتان (الانتخابات ـ العصيان السلمى) هما وسيلتان تتفقان مع الإسلام من زاوية عدم إراقة دماء المسلمين.. ومن زاوية صلاحيتهما لتحقيق الهدف.

إن ما حدث فى البلدان الشيوعية بما فيها الجمهوريات الإسلامية ، وما حدث من قبل فى ثورة إيران نماذج واضحة على إمكانية وواقعية التغيير عبر هذا السبيل السلمى. ولا يمكن تفكيك هيمنة الدولة المستبدة من خلال أعمال الدعوة بالمعنى الضيق للكلمة، ولكن عملية التفكيك تتطلب استنزافا مستمرا ومتواليا من المواقف السياسية الجماهيرية.. حتى الوصول إلى لحظة (الضربة القاضية).

وبدون مواجهة سياسية جماهيرية فستظل السلطات تزيف انتخابات الحكم المحلى كما يحلو لها، وتزور الانتخابات التشريعية كما يحلو لها.. وتشطب مرشحى الاتحادات الطلابية، وتتآمر لتصفية النقابات التى تخرج عن طوعها، فقد فاز الإسلاميون بـ ٦٠ مقعدا فى مجلس الشعب، وبعد تنزيل فادح للأرقام والمقاعد الحقيقية التى حصلوا عليها.. وبعدها بأقل من عامين زورت انتخابات الشورى بحيث لم ينجح إسلامى أو

معارض واحد! وهناك فارق بين المطالبة والاستجداء.. بين المواجهة والاسترحام.. بين المغالبة والالتماس!! لابد من تصعيد وسائل وأشكال وأساليب المعارضة الإسلامية.. لكسب مزيد من الأرض وتحقيق مزيد من المكاسب، ويجب أن نقول هذا صراحة فالصراع أصبح مكشوفا، وهو أشبه بالمباريات الرياضية التى يعرف كل طرف خصمه.. ويعرف أساليبه، وينتصر فى النهاية الأكثر جلدا واحتمالا وصبرا ولياقة وفنا وتدريبا، والصراع هو أساسا فى مجال الصبر والمثابرة.

﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾[النساء:١٠٤].

أو كما قال ﴿إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾، ثم يضيف ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾، ثم يضيف ﴿وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا﴾[آل عمران].

فإدارة المعركة السياسية لا تخلو من مخاطر ولا يمكن أن تخلو، وهذا هو لب الجهاد.. بل هذا هو أفضل الجهاد (قولة حق عند سلطان جائر).

وإن جوهر تواصلنا مع أمتنا الإسلامية أن نحمى بيضة الإسلام

فى عقـر دارنا، وفى الثغـر الذى نسأل عنه يـوم القيامة.. فـما هى الحملات الـتى نظمت لـلتضامن مـع المسلمـين المصريـين الذين يقـتلون فـى الشوارع بمـعرفة الشـرطة؟! وما هـى الحملات الـتى نظمـت ضد حالة الطـوارىء التى أقيـمت أصلا فى مواجـهة المد الإسلامى؟ وما هـى الحملات التى نظـمت ضد التدخل الأجـنبى والأمريكى الفظ فى شئوننا الداخـلية بصورة مباشرة أو عن طريق ما يسـمى بصندوق الـنقد الدولـى؟ وما هى الحملات الإسـلامية التى نظمت ضـد الاختراق الصهيونى لبلادنـا؟ وما هى الحملات التى نظمت ضد قانون الاستثمار الأمريكى الذى يعطى للمستثمر الأمريكى حـصانة ضد القضـاء المصرى؟ وما هى الحمـلات التى نظـمت لمقاطـعة البضـائع الأمريـكية والأجنـبية؟!! إلخ. مـا هى الحملات الـتى نظمـت للإفراج عن المـعتقلـين الإسلاميـين ؟ أو للإفراج عن الفريق الشاذلى؟ أو ضد تسليم الجواسيس الصهاينة؟ أو ما هى الحـملات التى نـظمت ضد رفع الأسـعار وبيع الـقطاع العام؟ وما هى الحمـلات التى شنت من أجل حرية وحق الـتنظيم وحرية الصحافة؟

لقد ضـربنا أمثـلة بالقـضايا التى تمـثل لب ما نـقصده بالـعمل السيـاسى الإسلامى، وهـى قضايا تحتـاج لمواقف معـلنة ومتـابعة

دائمة.. وقد تستتبع فى بعض الظروف (كحرب الخليج) أكثر من مجرد القول.

إن حماية العمل الإسلامى هى بمزيد من الالتحام بالجماهير.. ولا نقصد الجماهير اللصيقة بمواقعنا التنظيمية (وهم أشبه بالأنصار)، ولكن نقصد عامة الجماهير، وهذا الالتحام لا يتأتى إلا من خلال المواقف السياسية المتوالية والدفاع عن مصالح المستضعفين.. والمجاهدة ضد كافة أشكال اختراق الأجانب للبلاد، والحفاظ على استقلال البلاد وطابعها الإسلامى.

إن كسب تعاطف «الأغلبية الصامتة» وإعدادها للتحرك النشيط المؤيد لنا (تدريجيا) وإشراك قطاعات متوالية ومتزايدة منها فى معارك صغرى ومتوسطة هنا وهناك، من شأنه أن يحقق التلاحم بين الصفوة القائدة والجماهير، وهو السبيل الوحيد للتغيير السلمى لأوضاع التبعية والعلمانية فى البلاد وذلك عن طريق اقتناع أوسع الجماهير بالقيادة السياسية الإسلامية البديلة.. ونضع خطا تحت (البديلة) لأن هناك فرقا بين أن ترانا الجماهير مجرد (أناس طيبين)، وبين أن ترانا بديلا سياسيا كفؤا وقادرا على إدارة شئون البلاد، وقادرا على التصدى بشجاعة للطغيان والاستبداد وكافة أشكال الظلم.

مثال الجزائر

ويقدم مثال الجزائر مثلا حيا ومجسدا لما نريد أن نوضحه لأنه جرى فى ظروف أكثر تطورا، وفى أزمة للنظام العلمانى أكثر استفحالا، ويمثل نهج الجبهة الإسلامية للإنقاذ ما نحاول البرهنة على صحته.

وكثيرا ما تتهم الجبهة الإسلامية للإنقاذ بأنها انتخبت نتيجة كراهية الشعب الجزائرى للنظام الحاكم، وباعتبارها البديل المتبلور للمعارضة، وهذا ما لا نعتبره تهمة.. بل هذا هو بالتحديد ما نعنيه. فلماذا لا نقرن رغبة الناس فى التغيير بحزب إسلامى؟! فيكون اختيار الشعب للإسلام.. وللبديل الأصلح سياسيا كمعنيين مترادفين.

وقد كانت الجماهير تفزع من قبل للاحتماء بأيديولوجيات وتيارات أخرى، فلماذا تعتبر نقيصة أن يندفع الشعب ليلوذ بحزب إسلامى؟

ولاشك أن الملايين التى صوتت لجبهة الإنقاذ فى الانتخابات المحلية والتشريعية ليست جماهير من الأتقياء.. ومن خريجى حلقات المساجد.. وحفظة القرآن.. وإن كان هؤلاء بالطبع فى مقدمة المؤيدين والمنافحين، وهذا بديهى من الناحية النظرية.

ولكن من الناحية العملية أيضا، فقد امتلأت الصحف

الجزائرية بقصص عن النساء غير المحجبات بل والمتبرجات بصورة متفرنجة، وشاربى الخمر، وغير قويمى السلوك عموما الذين انتخبوا الجبهة الإسلامية للإنقاذ.. نعم إنها الجماهير بقضها وقضيضها تنتخب الإسلام أولا.. وتنتخب الجبهة الإسلامية ثانيا كبديل ثورى نقى مصادم يدفع ثمن قولة الحق، والجماهير تلتف حول النماذج الطاهرة المستعدة للتضحية والمصادمة مع الطواغيت، والمسلم الذى لا يلتزم بكافة تعاليم الإسلام يشعر فى قرارة نفسه أنه مخطىء.. (قالوا لأحد شاربى الخمر الذى انتخب الجبهة الإسلامية للإنقاذ أنهم سيمنعون الخمور ألا تعلم هذا؟ فكيف انتخبتهم؟ قال أنا أعلم أن الخمور حرام، وأشرب لأن الخمر متوافرة وإذا منعوا الخمور سيساعدنى هذا على الاقلاع عن هذه العادة!).

رأى فريق من الإسلاميين فى الجزائر أن جبهة الإنقاذ متعجلة ولا داعى للمناطحة حول السلطة الإسلامية، وبالتالى لا داعى لاستفزاز السلطات العلمانية.. والاكتفاء بمواصلة عملية توسيع القاعدة، مع أن جبهة الإنقاذ لم تكن تطرح الكفاح المسلح!! وإنما تطرح التغيير عبر الانتخابات وممارسات الضغوط الجماهيرية فى الشوارع لمنع تزييف القوانين وطبخها، وهذا ما حققت فيه نجاحا باهرا، ولا نعتقد أن جبهة الإنقاذ أخطأت لأنها حازت على ٨٠٪

من مقاعد البرلمان فى الدور الأول، فهل كان مطلوبا من جبهة الإنقاذ أن تقول للجماهير لا تنتخبونا بنسبة عالية حتى لا تفزع الحكومة العلمانية وقيادات الجيش العلمانية المتفرنسة!! إنه حقا لأمر مثير للعجب أن يخوض بعض الإسلاميين فى الجزائر الحملة الانتخابية تحت شعار المرحلية والموضوعية.. بينما الشارع الجزائرى يغلى من أجل التغيير الجذرى.. والذين يحبون أن ينتصر الإسلام هل سينتخبون إسلاما مرحليا؟! وهو إسلام لم يرد له ذكر لا فى قرآن ولا فى سُنة ولا فى فقه!!

سيقول أحدهم.. أبعد ما حدث فى الجزائر من انقلاب عسكرى تعتبر جبهة الإنقاذ نموذجا ناجحا..

نقول: نعم، لقد قدمت جبهة الإنقاذ درسا عظيما لكل العاملين فى الحقل الإسلامى وللجماهير وللأعداء وللأصدقاء.. وهو أن الجماهير العربية المسلمة ستنتخب الإسلام ومن يمثلونه من قوى إرادة التغيير فى أى انتخابات حرة نزيهة.. والجبهة لم تخطىء عندما سارت فى هذا الطريق حتى نهايته لتقيم الحجة على أعداء الإسلام، وتكشف حقيقة (الديمقراطية) التى يزعمونها لأنفسهم فى مواجهة (ديكتاتورية) الحركات الإسلامية.

والقضية ليست دروسا للتاريخ، فالحرب سجال، والصراع لم ينته، وجبهة الإنقاذ قد حازت الشرعية من الشعب الجزائرى فى

انتخابات أجرتها حكومة علمانية، ولن تسقط هذه الشرعية بالانقلاب العسكرى، ولا الحكم الحالى الذى سيسقط إن عاجلا أو آجلا، وستخرج قيادات جبهة الإنقاذ - إن شاء الله - من السجون إلى مواقع حكم البلاد.. بعد تواصل انهيار وتآكل نظام الحكم.

لا للتكفير

نحن نميل إلى التحليل الذى يرى موقف السلطات الحاكمة باعتباره ثمرة لفترة طويلة من الحكم العلمانى الذى كرسه الاستعمار، حقبة تم فيها عزل الشريعة وفرض قوانين غربية فى المحاكم، وعزل الدين عن التعليم، وعزل الدين عن السياسة، وعن نواحى الحياة الثقافية، الأمر الذى بلور نخبة متعلمة ومثقفة متغربة جاهلة بالإسلام وتعاليمه وجوهر رسالته، وهذه النخبة فى مواقع الحكم وخارجها.. ولكنها فى مواقع الحكم نسجت شباك مصالحها مع الأوضاع القائمة المتغربة ومع القوى الخارجية المعادية للإسلام، وبالتالى فإنها تدافع عن مصالح دنيوية لها، بالغة الوضوح وتدافع عن ترفها واستفادتها بالأوضاع القائمة حتى لو كانت فى إطار التبعية.

ووفقا للفقه الإسلامى فإن الخروج على الحاكم لا يتطلب كفرا بواحا بالضرورة، فإن الخروج (الثورة) على الحاكم الظالم واجب

شرعى مادامت قد توافرت السبل إلى ذلك، ومن هنا فإن معارضة الحاكم والسعى لتغييره لا تتطلب فتوى بكفره ولاداعى للدخول إلى متاهة التكفير لأنه سلاح ذو حدين.. وليس من مصلحة المسلمين نشر فكرة تكفير الآخرين، حتى ولو كانوا حكاما. فربما يكون عدم التزامهم بشريعة الله عن ضعف إزاء الضغوط الخارجية، وهذا ما حدث بالفعل حين سحب السادات التشريعات الإسلامية من مجلس الشعب بناء على ضغوط أمريكية بالغة الضراوة، ونحسب أن الموقف الأمريكى وراء تجميد هذه القوانين حتى الآن.

وهذا ليس دفاعا عن الحكام وإنما محاولة لتقديم تفسير آخر غير الكفر، وتتعدد التفسيرات الخاصة بالجهل، أو بالموقف الشائن للمؤسسات الإسلامية الرسمية التى تزين للسلطات أعمالها وتعطيها المبررات الشرعية، وإشاعة أن ٩٥٪ من الشريعة الإسلامية مطبقة بالفعل وغير ذلك كثير.

وكل هذه التبريرات والتفسيرات مهما تعددت لا ترفع الحرج ولا المسئولية عن أهل الحكم.. وتستوجب بالفعل مجاهدتهم لفرض الحكم الإسلامى بقوة الشعب ولا مجال لأنصاف الحلول فى هذا المجال.

وإذا اقتنعنا بضرورة اسقاط الحكومة الحالية مهما تعددت الأسانيد والتفسيرات والمبررات تبقى القضية الجوهرية: كيف؟!

ذكرنا فى البداية أن النصوص الشرعية (فى القرآن والسُنة) لا تحدد وسائل إلزامية للتغيير. ولكن قد يقال إن آيات الجهاد تتحدث عن القتال بلا لبس. ونقول إن آيات الجهاد صريحة فى قتال الأمة الإسلامية ضد أعدائها المباشرين الذين يحملون السلاح للقضاء على شوكة الإسلام، وهى تشير إلى قتال الجيوش بصورة عسكرية متكافئة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ﴾[الأنفال: ١٥].

والتقاء الجيوش المسلحة (زحفا) أمر يختلف عن النزاع الداخلى بين حكومة وحركة معارضة.

ونحن إذ دعونا من قبل لدراسة السُنة النبوية بصورة مبدعة وخلاقة لاكتشاف سُنن التغيير، فإننا لا ندعو بالتأكيد إلى النقل الحرفى الأعمى الذى لا يلاحظ تغير عديد من الظروف، ذلك النقل الحرفى الذى لا يستطيع أن يفرز بين الثوابت والمتغيرات، فاتخاذ قاعدة للتغيير (إقامة دولة فى المدينة) لا يصلح للنقل الحرفى. لأن مجتمع الجزيرة العربية إبان الدعوة لم يكن مجتمعا واحدا. وكان قائما على الوحدات القبلية، والتحالف بين مجموعات من القبائل.

وكانت القبائل متكافئة من ناحية العدة والعتاد وأسباب القوة. لا يصلح إذن هذا النموذج كى ينقل حرفيا فى بلد يتمتع بدولة

مركزية بيروقراطية عريقة فى قدمها تهيمن على أطرافها بجهاز إدارى شامل ومتشعب. فلا يوجد مجال فى بلد كمصر لإيجاد قاعدة أو دولة ينطلق منها نوع من الكفاح المسلح المنتظم.

ويمكن القول إن الدرس المستفاد من الدعوة الإسلامية أن آيات الجهاد تنزلت بعد إقامة دولة فى المدينة، وإنها كانت تدعو للقتال المنظم (زحفا) بين جيشين، وهو الأمر الذى يتأتى من خلال الدولة وليس قبل ذلك.

نماذج من العصر الحديث

الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها فهو أحق بها، ولقد تطورت الدول والمجتمعات عبر ١٤ قرنا ولابد أن نكتشف وسائل التغيير الملائمة للعصر، ويمكن أن نفترض أربع وسائل للتغيير من الناحية النظرية وأربعة نماذج:

١ـ النموذج الأفغانى ٢ـ النموذج الإيرانى

٣ ـ النموذج السودانى ٤ ـ النموذج الجزائرى

النموذج الأفغانى: استند إلى الكفاح المسلح الصريح ضد السلطة الشيوعية ثم ضد الغزو السوفيتى ثم ضد السلطة الشيوعية بعد اندحار الغزو.

النموذج الإيرانى: استند إلى الثورة السياسية الشعبية السلمية

للجماهير الإيرانية.. الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تفكك أجهزة القمع وانضمام قاعدتها للشعب.

النموذج السودانى: استندت مرحلته الأخيرة إلى حسم السلطة عن طريق الاتجاه الإسلامى داخل القوات المسلحة.

النموذج الجزائرى: ونعنى به حسم قضية السلطة عن طريق الانتخابات.. وقد تحول بفعل الانقلاب العسكرى المضاد إلى نموذج نظرى.. وإن كان لا يستحيل احتمال حدوثه فى ظروف أخرى فى بلد آخر فى المستقبل.

هذه هى النماذج النظرية والواقعية فى النصف الأخير من القرن العشرين. ونعتقد أنها النماذج الوحيدة المفترضة، وقد يحدث تداخل بين هذه الأنماط فى بعض التجارب ولكنها تظل نماذج تساعد على إدارة الحوار والمناقشة ونحن نبحث عن أفضل وسيلة للتغيير فى الواقع المصرى.

النموذج الأفغانى: لا يناسب الواقع المصرى من عدة زوايا:

فقد ارتبط بالجهاد المسلح ضد استعمار أجنبى.. والمعروف أن الاحتلال العسكرى المباشر ـ خاصة من قوى كافرة صريحة فى كفرها يستفز مشاعر كل الشعب ويهيىء الأرض لأعلى أشكال المقاومة (الكفاح المسلح). وحتى فى الفترات القليلة التى لم يكن فيها هناك تواجد مباشر للقوات السوفيتية، فقد كان من الواضح لجموع الشعب الأفغانى أنها بصدد حكم عميل شيوعى.

دراسة العلوم السياسية، ومنها الجغرافية السياسية مهمة لفهم الواقع المراد تغييره. فبلاد الأفغان استعصت دائما على الاستعمار الأجنبي .. وفشل الاستعمار البريطاني في التمدد من الهند إلى أفغانستان التي عاشت دائما في ظل نظام حكم مستقل وطني، ولا يقلل من فضل الشعب الأفغاني ولا أصالته أن نشير إلى طبيعة بلاده الجبلية الوعرة التي تساعد على الكفاح المسلح، وضعف سلطة الدولة المركزية تاريخيا، وصعوبة حكم البلاد بيد من حديد، بل لابد من الاستناد لتوافق الشعب وقبائله مع الحكام.

والجهاد الأفغاني جرى في مناخ من التأييد على المستوى الإسلامي والعالمي يؤكد شرعية الكفاح المسلح، وهذا اعتبار إضافي، ولكنه ساعد على توفير أسباب المقاومة من تسرب أشكال من الدعم العسكري خاصة من خلال الجارة (باكستان).

ومصر ليست أفغانستان من كل الزوايا السابقة.. فلا يوجد احتلال شيوعي مباشر.. وبالتالي لا توجد قضية كرامة ساخنة تستفز كل قوى الشعب بصورة صارخة وحادة.. وفي المقابل يقوم الحكم تاريخيا، على جهاز دولة مركزي شديد المركزية والصرامة.. ويتركز السكان في شريط الوادي السهل المنبسط.. ويتحكم جهازالدولة في كل صغيرة وكبيرة من حياة الشعب بدءا من قطرة الماء (للري) وانتهاء بكل ضرورات الحياة والرزق، سواء بصورة مباشرة، أو غير مباشرة، وتوجد شبكة مواصلات محكمة

(طرق ـ سكة حديد ـ مطارات ـ نقل نهرى) تزيد من إحكام قبضة الدولة.

إن نمط وأسلوب التغيير فى بلد كمصر.. شبيه بالنموذج الإيرانى حيث التركز السكانى الكثيف فى المدن الرئيسية، وحيث تم الصراع على السلطة من خلال تجييش الجماهير العزل ضد سلطة الدولة المركزية، وهى بالمناسبة عريقة فى بيروقراطيتها الفارسية كصرامة البيروقراطية الفرعونية.. ومن خلال المواجهة الشعبية التى استخدم العنف فيها من قبل السلطات وسقط مئات وآلاف الضحايا الشهداء من جانب المتظاهرين العزل.. من خلال ذلك تم تفكيك آلة القمع (الشرطة وقوات الجيش) وكانت قرابة نصف مليون وانضم أفراد الشرطة والجيش للشعب وحسمت المعركة بهذا الطريق.

ونحن نقول النموذج الإيرانى لأنه إسلامى أو اقترن بثورة إسلامية.. إلا أن هذا الأسلوب لم تحتكره إيران بل هو نمط تاريخى معاصر ومتكرر: انتفاضتا عامى ١٩٦٤، ١٩٨٥ فى السودان.. الثورات التى شهدتها دول المعسكر الشيوعى وغيرها الكثير.

ويمكن أن نقول إنه نموذج (هندى) فى عهد غاندى الذى استخدم أسلوب المقاومة السلبية والعصيان المدنى السلمى لشل السلطات البريطانية، وأدى فى النهاية إلى تحرير الهند..

ومن المهم أن نشير إلى أن المسلمين الهنود هم الذين دشنوا هذه السياسة، ثم رفع لواءها غاندى (الهندوسى) فيما بعد واقترنت باسمه.

وليس أمام الإسلاميين سوى هذا الطريق الشاق.. وكل الطرق شاقة.. ولكن المهم اختيار الطريق الذى يوصل إلى الفلاح.

لابد من حشد القوى الجماهيرية للمطالبة بالاحتكام إلى صناديق الاقتراع.. أى النموذج الجزائرى (بدون الفصل الأخير!!) وإذا لم تستجب السلطات، وهذا هو الأرجح فى المدى المنظور، فليس أمامنا سوى النموذج الهندى - الإيرانى. بل لعل النموذجين يختلطان معا فتجبر حركة الجماهير السلطة على اللجوء إلى الخيار السلمى الانتخابى.

وباعتبارنا من العاملين فى الحقل السياسى فإننا نستبعد (الخيار الرابع): تدخل الجيش، ونتمنى أن تظل المؤسسة العسكرية مستقلة محايدة.. للأمة كلها.. وتحمى وتحترم خيارها الشرعى، وهذا ليس من قبيل الأمنيات التى لا تستند إلى واقع، فجيشنا والحمد لله، لم يبتل بقيادات تربت فى أحضان الجيش الفرنسى (كبعض جنرالات الجيش الجزائرى) وجيشنا ليس له أى تاريخ فى ضرب الشعب.. بل على العكس فقد استقرت قيمه ومبادئه وأهدافه

على محاربة إسرائيل ومعاداتها، ومازالت هذه الروح سائدة فيه رغم كل التراجعات التى فرضتها اتفاقية كامب ديفيد.

وسيظل رجال القوات المسلحة أبناء الشعب ينحازون إلى اختياراته وميوله وتوجهاته.. وهى الآن فى سبيل الإسلام.

* * * * *

من خلال هذا العرض يتبين أن الطريق القويم هو الذى يجمع بين خط التربية والدعوة وخط المواجهة السياسية ـ السلمية ـ الجماهيرية، وهى بالمناسبة لا تتعارض مع القوانين والدستور الحالى.. بل إن الدستور الحالى ينص على حق التنظيم والاجتماع وتنظيم المواكب والمسيرات وحرية التعبير وكافة الحقوق وضمانات الحرية الشخصية. أما حالة الطوارىء فلا شرعية لها من وجهة نظرنا حتى بمقاييس الدستور الحالى. ومن الطبيعى أننا لابد أن نقاوم أى قرار يستهدف محاصرة حركتنا السياسية.

إن المواجهة مطلوبة لكل الاعتبارات التى سقناها آنفا، ولكونها مواجهة سلمية فإنها تضع الخصم فى أضعف نقطة ممكنة.. إن مواجهة حركة سلمية بالعنف المنظم للدولة هو أكبر دليل على عجز وفشل وعدم شرعية هذه السلطة.. وهو السبيل لفتح آفاق التعاون بين الحركة الإسلامية وأوسع الجماهير.

والارتباط بالجماهير يستدعى:

١ ـ أن نكون نموذجا فى الشجاعة والاستعداد للتضحية والفداء ومواجهة الظلم.

٢ ـ أن ندافع عن حقوق الشعب وعن كافة طوائفه وفئاته كلما تعرضت لجور أو عدوان.. كما فعلنا مع المعلمين، وعمال القطاع العام، وأصحاب المدخرات الضائعة بسبب حملة الحكومة الظالمة على شركات توظيف الأموال.. إلخ..

إن الحركة الإسلامية لا تطرح مفاهيم أخلاقية مجردة، بل هى تنتصر للحق ضد الباطل فى كل موقعة وكل آن، ولابد أن يكون واضحا أنها نصيرة المستضعفين والمدافع الأشد عن مصالحهم.. وأن المستضعفين هم جنودها الحقيقيون وحملة رسالتها.

٣ ـ أن نخوض المعارك السياسية المتواصلة ضد أى قرار أو تشريع أو توجه حكومى يضر بالمصالح العليا للوطن، لأن أى إضعاف لمصر إنما هو اضعاف لمستقبلها الإسلامى من كل بد.

ويبقى أن لحظة التغيير الشامل تعتمد بالأساس على توفيق من الله سبحانه وتعالى.. فلا يعرف أكثر المحللين ذكاء مواعيد التحولات الثورية.. ولكن مهمتنا أن نبذر الحب، وأن نتعهده بالرعاية.. إلى أن يأتى الغيث.. وسينهمر بإذن الله.